خطاب القاهرة(نص وتحليل)

(الخطاب يكون خطابَ وحدة عندما يستهدف تحقيقَ واقعٍ صحيح، وينسجم بمفرداته مع مفردات كل واقع يريد أن يصنعَه)

(في العراق إصراراً على حفظ وحدة الشعب، وإصرار على الحفاظ على الموروث الرائع من التعايش المذهبيّ، والدينيّ، والقوميّ، لقد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا واقعاً، ونحن مُصِرون على الحفاظ عليه)

(نحن أبناء المقاومة.. مَن الذي يزايدنا على المقاومة، ومن الذي يملك تأريخاً أطول من تأريخ العراقيين في المقاومة، ومواجهة الدكتاتورية، من؟
نحن أبناء (الصدر)، الصدر الذي صمّم على الشهادة)

(إن الوحدة في العراق تنبض في عروق العراقيين، ومن يُرِد معرفة ذلك فليتابع التعامل اليوميّ بين أبناء السنة والشيعة)

السلام عليكم جميعـــاً ورحمــة الله و بركاته..
قال الله - تبارك وتعالى - في محكم كتابه العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم

((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم))

ثلاث أزمات عادةً تواجه أمَم العالم وشعوبها عندما تصرُّ تلك الأمة، أو ذلك الشعب على تحقيق وحدته:
أزمة في الفكر، وأزمة في الخطاب، وأزمة في التطبيق والأخلاق.
من أين ينطلق المفكرُ الإنسانيُّ في تحديد مفهوم الوحدة، هل الوحدة وحدة عقل وفكر، أم هي وحدة قلب؟
ينفتح علينا القرآن الكريم بثقافة التعدّد على مستوى التفكير، وعلى مستوى إعطاء العقل فضاءً متسعاً يحترم الآخر؛ لذلك أقرّ القرآن التعدّد بالحوار، والتعدّد بالتفكير، والتنوّع الفكريّ الذي احتضنه، ورعاه؛ لذلك نشأ أصحاب الفكر، وترعرع فكرهم في آفاق الدين الإسلاميّ.
إنما بدأت بهذه الفقرةِ فقرة تأصيل وتقعيد مفهوم الوحدة؛ لأني أشعر أنها الآن تدور في بعض أروقة المتدينين، وبعضهم ممن يؤكد على أنهم يحرصون على الوحدة، وينطلقون بطريقة - في تقديري - تفتقر إلى مرتكز فكريّ.
الوحدة في القرآن ليست وحدةَ عقلِ الإسلام لم يُلغِ الآخرِ الآخر العائليّ، والآخر القبليّ، المدنيّ، المناطقيّ، والآخر الدينيّ كذلك؛ الوحدة لا تعني أنك تلغي الآخر، الوحدة تنطلق من القلب؛ لذلك يؤكد القرآن ذلك:
((وأمرهم شورى بينهم))
((وشاورهم بالأمر فإذا عزمت فتوكل على الله))
أي احترم الآخر، ورعى الآخر؛ لذلك نجد أن القرآن جعل في آيات قرآنية كثيرة منه الآخر جزءاً من الحياة المتمدينة والمتحضّرة التي تتعامل فيها مع الآخر:
((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء))
الآخر محترم، والذي يحمل فكراً إسلامياً ينبغي أن يضع في حسابه أنه؛ من أجل أن يكونَ فكره فكراً إسلامياً يجب أن يعترف بالآخر، مهما كان الآخرُ بعيداً عنه.
ليس من أدبيات الوحدة أن تقمعَ الآخرِ إنما الوحدةُ تنطلق من القلب:
((واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم))
ولم يقُل بين عقولكم وآرائكم، فمن القلب تبدأ الوحدة، ومن القلب تبدأ الفرقة، ومن حيث بدأت الفرقة لابدّ أن نعوض هذه الفرقة بوحدة، هذه هي أزمة الفكر..

وأزمة الخطاب, فمثلما اختنق مفهومُ الوحدة بأروقة البعض من الذين يردّدون كلمةَ الوحدة، كذلك احتبس الخطابُ في بعض هؤلاء.
الخطاب يكون خطابَ وحدة عندما يستهدف تحقيقَ واقعٍ صحيح، وينسجم بمفرداته مع مفردات كل واقع يريد أن يصنعَه؛ عندئذ يكون الخطابُ خطاباً وحدوياً.
هناك أزمة، وهناك ازدواج في الخطاب؛ لأنك تجد من الناحية التنظيرية هناك الكثير ممن يتحدثون عن الخطاب الوحدويّ، ولكن عندما تنظر إلى الواقع تجد ممارسة خاطئة ومقلوبة.
نحن في العراق تخطّينا مسألة الخطاب, ولسنا بحاجة إلى خطاب يُشعرنا كيف نوحّد واقعنا, هناك واقع وحدويّ في العراق نستلهم منه مفردات الخطاب، خذواً مثلاً بسيطاً:
رأيتم ماذا أرادوا بحادثة (جسر الأئمة) (1)؟
أرادوا أن يمزّقوا واقعنا بواقع آخر، ويستبدلوا الوحدة الحقيقة بحالة من الفرقة.
إن الخطاب الذي صدح به الجميع كان خطاباً وحدوياً، كان مستلـَهماً من الواقع؛ لذا وجدنا أن الكلمات التي أطلقها الجميع، والممارسات التي جسّدها مشهد (شهداء جسر الأئمة) كان مشهداً وحدوياً رائعاً ذابت فيه كل الفروق المذهبية، والقومية، والدينية، والسياسية، والمناطقية؛ لذا نحن لسنا في أزمة خطاب..
أنا في الوقت الذي أُثمّن الجهود التي بذلها معالي الأخ الدكتور (عمرو موسى)(2) في جمع هذا الشمل المبارك في هذه القاعة، وإذ أقدّر كم بذل من الجهود, ولعلي عشت بعض فصول محاولاته وأنا في بغداد، لكني أقول له:
على الرغم من هذا الذي بذلته؛ لتجمع الفرقاء السياسيين العراقيين تحت سقف واحد، وفي قاعة واحدة, إلا أن هناك حكومةً وطنيةً مخلصةً وُلِدت من رحم هذا الشعب، وهي مُصِرّة على أن تجعل من أرض العراق، وسماء العراق، وثروات العراق، واقعاً وحدوياً حيث تُستبدَل فيه الطلقة بالكلمة الطيبة، والبندقية بالقلم.
ربما يكون من الصعب أن تجمع الفرقاء السياسيين، لكنَّ الأصعبَ أن تتعامل مع الواقع خصوصاً حين تبلغ الصعوبة ذروتها عندما يحمل الآخر سلاحاً، ويستبيح الكرامةَ والدم.
في العراق إصرار على حفظ وحدة الشعب، وإصرار على الحفاظ على الموروث الرائع من التعايش المذهبيّ، والدينيّ، والقوميّ، لقد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا واقعاً، ونحن مُصِرون على الحفاظ عليه.
في العراق، يجعل (26,1) في المائة من العراقيين يتلوّنون في زيجاتهم بالزواج بين مختلف المذاهب.

---

(1) جسر الائمة : حادث إرهابي تعرّض له المواطنون على جسر الأئمة الرابط بين الأعظمية والكاظمية، أثناء ذهابهم لإحياء شعيرة وفاة الإمام الكاظم - عليه السلام - سنة 2005؛ فتسبّب باستشهاد العشرات منهم .
(2) عمرو موسى :الامين العام لجامعة الدول العربية في ذلك الحين.

لقد ورثنا هذا الواقع, ونحن مُصِرّون على الاستمرار عليه.
تعرضت الوحدة الوطنية في أكثر من مرة، وتحت شعارات كبيرة باسم (الوحدة) لمحاولات تمزيق الصف! وتحت شعارات كبيرة من حيث اللفظ، باسم الحفاظ على (الأمن، واختزال زمن وجود القوات متعدّدة الجنسيات) وإذا بنا من جرّاء هذه الشعارات نجد أطفالنا، ونساءنا، وكبارنا، وصغارنا يموتون على رؤوس الأشهاد، وبطريقة بشعة يقشعر لها الجلد، ويندى لها الجبين خجلاً و حياءً!!.

ودّعتُ بغداد يوم أمسِ بكارثةٍ جديدة!! حيث سجل عمر آخر الأطفال المستشهدين رقماً بلغ أربعة أيام فقط!!.
هل هذا هو مفهوم المقاومة؟!
نحن أبناء المقاومة.. من الذي يزايدنا على المقاومة، ومن الذي يملك تأريخاً أطول من تأريخ العراقيين في المقاومة، ومواجهة الدكتاتورية، من؟
نحن أبناء (الصدر)، الصدر... الذي صمّم على الشهادة، وقال:
أقَدّم نفسي شهيداً، وهذا آخر خطابي معكم.
نحن أبناء (عبد العزيز البدري) الذي قطعه صدام أوصالاً..
نحن أبناء هؤلاء، نحن (نمشي) بطريق، ونعي جيداً الخطورة التي تلمّ بنا.
هناك ثقافة في البعث الذي ورّث العراق هذه الممارسات السيئة, وهناك الثقافة التي جاءت باسم العرب في العراق، فقطعت أوصالنا، وهدرتْ ثروتنا، واعتدت على كراماتنا؛ لذلك وضعنا خطاً أحمر:
لا مجال للبعث في العراق.
هذا ليس قراراً شخصياً أطلقه من منصة الجامعة العربية، إنما هو واقع عراقيّ.
ذهب الوقت الذي يـُختزَل فيه العراق بشخص واحد، العراق اليوم معمل أبطال، والذي يسقط شهيداً على نظرية أن تغتال صاحب النظرية، أو رجل التصدّي، فسيخرج بعد ذلك ألف ألف قائد، وألف ألف مُنظِّر في العراق؛ لذا يجب أن نبني العراق بناءً حضارياً جديداً.
كل بلدان العالم عندما تتعرض شعوبها إلى الدكتاتورية تثور، وعندكم هذه الثورات الخمس الكبرى في التأريخ: البريطانية، والأميركية، الفرنسية، والروسية، والصينية، هذه هي الثورات المعروفة.
إن كل بلد يتعرض إلى الاحتلال يُقاوم، وكل بلدان العالم تقاوم، والذي يريد أن يـُنهي فصل وجود القوات متعدّدة الجنسيات (في العراق) لا ينبغي أن يكون جزءاً من مركّب الإرهاب، بل ليكن جزءاً من مركّب الأمن؛ لأن شعبنا يريد منا أن نوفر له الأمن.
إن الأخوّة بين العرب والكرد وبقية القوميات واقع في العراق، والأخوّة بين السـُنة والشيعة واقع كذلك، ولا نحتاج لأحد حتى يذكرنا بذلك، لكننا نشكركم كثيراً على هذا التذكير.

إن الوحدة في العراق تنبض في عروق العراقيين، ومن يُرِد معرفة ذلك فليتابع التعامل اليوميّ بين أبناء السنة والشيعة, بعض الذين يمارسون الإرهاب باسم الطائفة يردّ عليهم شعبنا: إن هذا لا يمثل الطائفة السنية أو الطائفة الشيعية، ونحن نقولها حقاً:
لا يوجد سُنيّ يقتل شيعياً، ولا يوجد شيعيّ يقتل سنياً على الإطلاق؛ لأنهم يتعايشون جميعاً.
لذلك هذا الانفصام بالخطاب، وهذا الانفصام في مجالات التطبيق، نحن نقول شيئاً، ونمارس عملاً مناقضاً لما نقول، وهذا في تقديري لا يدفع بالوحدة إلى أن تتحقق، لكن الذي يدفع بالوحدة حتى تتحقق هو أن نلتزم بمستلزمات الوحدة.
الشعب العراقيّ خرج في الـ 30 من كانون الثاني؛ لينتخب تحت وابل الرصاص، وعلى رؤوس الأشهاد، حيث الكل شهد ذلك المشهد في30 كانون الثاني 2005, حيث انتخب الشعب العراقيّ جمعية وطنية لمّت، وجمعت بتكويناتها مُجمَل تكوينات الشعب العراقيّ باستثناء الحجم الذي يناسب إخواننا وأعزاءنا أبناء السُنة العرب، لظروف نعرفها، وتعرفونها.
هذه الجمعية الوطنية تقدّمت بشكل رائع؛ لتسجّل سبقاً في هذه المنطقة، إذيتواجد فيها ثمانون سيدة يشكلن 30% من مجموع أعضاء الجمعية الوطنية، حيث السيدات يشكلن الآن مع إخوانهن في الجمعية الوطنية نسبة الثلث، وكذلك الحال في الحكومة، حيث إن ما يقرب من ثلث أفراد هذه الحكومة من السيدات اللائي يساهمن في الحكومة.
في هذه الحكومة حيث العربيّ، والكرديّ، والتركمانيّ، والمسيحيّ، والسُنيّ، والشيعيّ، كلنا نعمل سوية، وتحت سقف واحد، ولم تنقطع اجتماعات مجلس الوزراء ولو لأسبوع واحد، وبعض الأحيان كنا نضطر إلى عقد اجتماعين في الأسبوع الواحد، والجميع يعمل كخلية نحل.
يتذكر الأستاذ (عمرو موسى) أني جئت هنا إلى القاهرة ماشياً على قدميّ، لقد جئت إلى مصر؛ لأنها الأكبر العربي، ولأنها حاضنة القدر العربيّ (جامعة الدول العربية)، جئت هنا بكل تواضع؛ حتى أبدأ من حيث أصلي في مصر.
أنا أقدّر ماذا تعني مصر: إن مصر هي الجناح الثاني للحضارة الإنسانية بعد العراق، فالطائر الحضاريّ حلّق في التأريخ في الالف الرابع قبل الميلاد من الأهوار في العمارة والناصرية، ثم من مصر من الاهرام، فبدأ عدّاد الحضارة في المسيرة الإنسانية يؤرّخ من مصر.
ربما شكّك البعض بأصل مِصر وعروبتها عندما نظر البعض من أرض النيل: أن مصر آريّة الأصل، ولم يشكّك أحد بعروبة العراق، نحن أبناء العراق، ونحن إخوانكم هنا.
لقد جئت إلى هنا، ووددت أن تتحرّك العملية، ويكون إخواننا بكامل أفراد العائلة العربية معنا في الشارع العراقيّ، وقلت لهم: أنصفونا فيما هو لنا، وأنصفونا فيما هو علينا.. أنصفونا.

لقد تمنيت أن تتم الحركة (الدعم العربيّ للعراق) منذ وقت مبكر، وللحق أقول: كان الرجل (عمرو موسى) إيجابياً, فقد ساعدنا بأن نحتلّ موقع وزارة الخارجية في (2003/9/9) حيث عُقِد أول مؤتمر لوزراء الخارجية العرب بعد سقوط الطاغية المقبور صدام، وجلس وزير خارجيتنا على كرسي وزارة الخارجية العراقية في هذا المؤتمر، لكن - وللأسف الشديد- شهدت مسيرة الثلاثين شهراً أو ما يقرب الثلاثين شهراً الماضية غياباً عربياً (منذ سقوط نظام صدام في 2003 حتى وقت انعقاد مؤتمر الوفاق العراقيّ في 2005/11/19).

مازلنا نتمنى لهذا المؤتمر، ولهذه المبادرة الموسومة: (الملتقى الوطنيّ العراقيّ)، أو (اللجنة التحضيرية للتفاهم الوطنيّ العراقيّ)، والتي أمامها مسؤوليات كثيرة، نتمنى أن تتمكن من المساهمة بشكل فعّال في دفع العملية الوطنية إلى الأمام.

أمام هذه المبادرة، نحن نعيش في العراق، وقلوبنا مفتوحة لكل إخواننا وأعزائنا، ولن نفرّق بين أحد، ونصرّ على هذا الطريق، ونتوسّم أن تضيف هذه المبادرة رافداً جديداً لتقوية الوحدة الوطنية العراقية.

أقول: إن مُلخص ما نتطلع إليه من هذه المبادرة الموسومة هو أن تخرج بآلية محدّدة، وتتذكر الخطوط الحمراء التي وضعناها، والمستوحاة من المصلحة الوطنية العراقية، بل أكاد أزعم أنها من البيت العربيّ، ومن الجامعة العربية.

وفي الوقت نفسه نتطلع أن تسعى مبادرة الجامعة العربية إلى التفاعل مع الخطوات اللاحقة في العملية الانتخابية القادمة لشجب الإرهاب، وتعزيز الوحدة الوطنية، وأتمنى أن تنعطف جامعة الدول العربية في التعامل معنا؛ لاحترام سيادة العراق، وأن يتحرك العراق في داخل الجامعة العربية باعتباره دولة مؤسسة مع مُجمَل حركة هذه الجامعة بكل دولها.

كما أتمنى أن يقدّر الإخوة في جامعة الدول العربية ظروف العراق التي يمرّ بها، فيتعاونوا معنا أمنياً، وإعلامياً، واقتصادياً.

إن العراق بلد الخير، وهو ليس بحاجة إلى أحد، ولكنه الآن يمر بظروف استثنائية، وسيمضي العراق حتى يشقّ طريقه، ويأخذ موقعه المتقدّم؛ لأن الله - تبارك وتعالى - حباه بمختلف أنواع النعم، ومن هذه النعم هو الخزين السياسيّ المتنوّع لكل الكيانات والأطياف العراقية.

إن العملية الديمقراطية ستمضي إلى مداها النهائي في تحقيق حالة ديمقراطية لا يختنق فيها أيّ عراقيّ، حيث يمتد فيها العراقيون كافة؛ لأخذ حقوقهم بكامل حجمهم، وبما يتناسب مع حجم العراق كله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

(الدكتور الجعفري كان يستشهد بالقرآن الكريم كرؤية، وحضارة، وموقف، فهو كان يؤسس للوحدة العراقية قرآنياً..)

(رئيس الوزراء الدكتور الجعفري في خطابه جعل طرح احترام الآخر قضية مبدئية، وليس قضية عَرَضية..)

(كان الدكتور إبراهيم الجعفري حريصاً على تفويت الفرصة على الأعداء، على مثيري الفتن، على محترفي اللصوصية العقدية، على التكفيريين، على فرق الحذف والقتل والموت والنفي والإجحاف والتلجيم والتهميش...)

خطاب الفكر
والسياسة في مؤتمر القاهرة

كمال حسين

في كلمته التي ألقاها في مؤتمر الوفاق الوطني انطلق الدكتور الجعفري من ثوابت راسخة لديه، متأصلة في تكوينه النفسي والفكري والروحي، فهو ينطلق من كونه مسلماً عراقياً، فلم يكن استشهاده بالقرآن الكريم في موضوع الوحدة الوطنية، الوحدة الإنسانية، الوحدة الشعبية... لم يكن استشهاده اعتباطاً، لم يأتِ جُزافاً بل جاء الاستشهاد وثيقة حضور، حضور روحي وعقلي وتأريخي، بل حضور شعبي؛ لأن الشعب العراقي شعب مسلم، مؤمن بهذا الدين، ولا يتخلى عنه، كذلك كل شعوب الأمة.

إن كثيراً من الناس والخطباء والمحاضرين قد يستشهدون بالقرآن الكريم، ولكن قد يكون الاستشهاد للنصيحة، لتعزيز رأي، للحكمة، للتذوق الأدبي، وللتعريج على قضية، ولكن الدكتور الجعفري كان يستشهد بالقرآن الكريم كرؤية، وحضارة، وموقف، فهو كان يؤسس للوحدة العراقية قرآنياً.

كان الاعتصام بحبل الله هو المنطلق والبداية، وهو منطلق كوني يتجاوز كل اعتبار، ويصهر كل الألوان، وكل الأشكال، وكل اللغات، وكل الأجناس ...

الاعتصام بحبل الله ليس استعاذة بل بناء، وليس حصانة من الفرقة، ومن التشتت، ومن التفرق، ومن التشظي، هذه المقتربات من لوازم الاعتصام، بل الاعتصام عمل مباشر، التزام حيوي، التزام إيجابي، حياة على الأرض، مسيرة مفعمة بالفعل الذي يمكن أن يتحول إلى قدوة فعل، فعل عطاء، وليس فعلاً هروبياً.

كان العراق حاضراً في خطاب رئيس الوزراء الدكتور إبراهيم الجعفري ليس خريطة تحيط به حدود، بل خريطة غنية بالحياة، غنية بالمعاني، غنية بالتأريخ، وقد كان العراق في خطابه كوعد، ومصير، ومستقبل، ومن هنا تغنّى بالعراق، كان يذكرنا خطابه بخطاب ديغول لما كان يتغزل بفرنسا.

العـراق كـان نقطــة انطــلاق وعـودة، نقطــة بدايــة ونهايــة، فـالعراق كــان صــانع الحضـارات، والعراق أبو العروبـة، وحاميهـا، هل ننسـى حاضـرة الكوفـة، حاضـرة البصـرة، حاضـرة بغـداد، كـان القـرن الرابـع الهجـري إنمـا هـو حضـارة العـراق، فالإسلام في كنف العراق، والعراق في ظل الإسلام.

كـان خطـاب وحـدة، نعم، خطـاب وحـدة، ولكـن وحـدة منبعثـة مـن أرض صُلبة، مـن واقع قوي، من عتبة، من مرتكز ثابت... خطاب وحدة بالصميم، وليس وحدة أمـاني، وحـدة منبعثـة مـن فكـر، وتـأريخ، وجغرافيـة... الأمـاني طيبـة، حلـوة، لذيـذة، ولكـن وحـدها لا تصـنع تاريخـاً، إذا أردنـا أن نصـنع تأريخـاً علينـا الرجـوع إلـى مرتكـزات ثابتة، ومن هنا كان الحضور القرآني، والحضور العراقي في خطاب الجعفري وهو يطرح موضوع وحدة العراقيين.

ليس هناك وحدة من دون احترام الآخر، بل لا وحدة إذا لم يوجد آخر، آخر على الجهـة الثانيـة، آخـر وطنـي، آخـر محلـي، آخـر عقدي، آخـر قبلـي، آخـر قومي، آخـر مذهبي، آخر ديني...

أي معنى للوحدة، إذا فُقِد الآخر، وحدة مقابل ماذا؟ وبالمقارنة بماذا؟ وبموازاة ماذا؟ لا معنى للوحدة في فراغ، ومن هنا كان الواحد فـي حاجـة ذاتيـة للآخـر لا حس، لا صراع، لا تنافس، لا إبداع، لا كتابة، لا قراءة، لا هموم، لا فرح...

لا شيء بدون الآخر، فهل يخطئ بعضهم عندما يقول أنا في الآخر؟ والآخر هو أنـا بصورة غير مباشرة؟

يقول السيد الجعفري في خطابه: (الآخر المحترم...) كلمـة جميلـة، وعلينـا أن نعـرف أن الاحترام هنا ليس براغماتياً، ليس من أجل منفعة تـأتي، وتـذهب فـي لحظـات، بـل الاحترام هنا نابع من الاعتـراف، الاعتـراف بحـق الآخـر فـي الوجـود، بحـق الحيـاة، بحق العمل، بحق الضرورة...

ولكن ماذا يعني احترام الآخر؟

قـد يتبـادر إلـى الـذهن أنـه احتـرام خلقـي، يعنـي معاملـة تتسـم بالصـدق، تتسـم بالموضوعية، أن لا أخونه، أن لا أغدر به، أن أكون معه صادقاً...

كل ذلك جميل...

ولكن الأكمل من ذلك، الأجمل منه، الأسمى، الأروع أن أرى في الآخر مكمّلاً لي، أن أرى فيه قيمة وجودية مساوية لقيمتي الوجودية...

هذا هو المعنى العميق لاحترام الآخر، احترام الروح الإلهية الكامن فيه، احترام الروح التي صار بها بشراً، كما صرت أنا بها بشراً، احترام كلمة الرب العظيم، إرادة الله فهذا الآخر ليس صدفة، ليس نقطة تائهة، ليس عبارة غامضة مجهولة بل هو إنسان أشرف مخلوقات الله (سبحانه وتعالى).

رئيس الوزراء الدكتور الجعفري في خطابه جعل طرح احترام الآخر قضية مبدئية، وليس قضية عرضية، ليس قضية سياسية، فالإنسان ليس حيواناً سياسياً وحسب كما يقول (أرسطو طاليس)؛ لأنه ليس مجموعة حقوق من أكل وشرب وليس غريزة وحسب، وليس قضية عقدية لأن ليس بالعقائد وحدها يعيش الإنسان، بل احترام الآخر في إطاره الكلي، الشمولي، إنما هو التعاطي مع الحياة مبدئياً كحق من الحقوق، حق أصيل، حق من الله.

الله هو الحي القيوم، الباقي، ونحن من روحه، كلنا بلا استثناء، والحياة هبة من لدن الخالق (جل وعلا)، منه ليس لأحدنا فضل على الآخر في منـّة الله، ومن هنا كان علينا احترامها، احترامها في داخلنا، واحترامها في داخل الآخر، أي يجب احترام الآخر.

حسناً فعل السيد الدكتور في خطابه عن قضية الوحدة بين العراقيين، حسناً فعل عندما استشهد بالواقع؛ لأن الواقع سيد الأدلة، بل هو الدليل، كان مصيباً عندما أشار إلى حادثة جسر الأئمة، وهو يتحدث عن واقعية الوحدة العراقية، وحدة عربه وأكراده، وحدة مسيحييه ومسلميه، وحدة شيعته وسنته، وحدة ريفه ومدنه، وحدة متدينيه وعلمانييه، وحدة شماله وجنوبه ووسطه، وحدة دجلته وفراته.

كان مصيباً باللجوء إلى الحس العملي وهو يتحدث عن وحدة العراقيين، فهل هناك ما هو أعظم دلالة من الحس؟ وهل هناك ما هو أكثر وضوحاً من الحس؟ حتى

العلوم الدقيقة تبدأ من الحس، حتى ما يسمى بـ (الحكمة المتعالية) تبدأ من الحس، حتى التجريد يبدأ من الحس.

يقول السيد الجعفري:

.... أرأيتم ماذا أرادوا بحادثة جسر الأئمة، أرادوا أن يمزقوا واقعنا بواقع آخر، ويستبدلوا الوحدة الحقيقية بحالة الفرقة، ولكن كان هناك شيء آخر:

الخطاب الذي صرّح به الجميع كان خطاباً وحدوياً، وكان مستلهماً من الواقع، ولذلك وجدنا الكلمات التي أطلقها الجميع والممارسات التي شهدها مشهد جسر الأئمة كان مشهداً وحدوياً رائعاً ذابت فيه كل الفروق المذهبية، والقومية، والدينية، والسياسية، والمناطقية...

كان السيد الجعفري مؤمنا بقوة الواقع بمهارة الواقع، بقابلية الواقع على الإقناع، فهو الشهادة التي لا تقبل التزوير، لا تقبل التحوير، لا تقبل الإضافة، وكان هذا الاستشهاد رداً واضحاً على كل من كان يريد تسعير إدعاء طائفي مزيّف، تسعير دعوى عنصرية مزيفة، كان رداً على من يريد خلط الأوراق، مستغلاً ظرفاً خاصاً.

شاهد آخر، شاهد واقعي آخر طرحه السيد الجعفري في خطابه على بداهة الوحدة العراقية، على أصالة الوحدة العراقية شاهد ملموس، من صُلب الحس، من صُلب الممارسة ذلك هو الإقبال الجماهيري العراقي على صناديق الاقتراع، فإن ذلك مظهر لجوهر، ظاهر لباطن، هناك إصرار على صيانة الوطن، هناك إيمان بضرورة المشاركة الشعبية في صناعة القرار السياسي، فهل هناك دليل أوضح من هذا الدليل على الوحدة الوجدانية للشعب العراقي؟ ومن ثم هناك وجدان مشترك...

ولكن ألم يختلفوا في نتائج التصويت؟

نعم...

وينبغي أن يكون هناك اختلاف، فالناس ليسوا حجراً، ولكن ليعلم المتصيد بالماء العكر أنه اختلاف في وحدة، اختلاف مثمر، اختلاف في نطاق الروحية العراقية، اختلاف تنافس لا اختلاف إقصاء.

كان الدكتور الجعفري دقيقاً في الاستفادة من الشاهد الواقعي، من الحس، من الرقم العملي، من الممارسة، وتلك من آيات الحصافة السياسية اليوم.

كان الدكتور إبراهيم الجعفري في خطابه في مؤتمر الوفاق الوطني في القاهرة حريصاً على تفويت الفرصة على الأعداء، على مثيري الفتن، على محترفي اللصوصية العقدية، على التكفيريين، على فرق الحذف والقتل والموت والنفي والإجحاف والتلجيم والتهميش...

يقتلون الناس باسم الطائفة الفلانية، حماية الطائفة، الانتصار للطائفة، عودة الطائفة... وإلى ما هناك من تسميات ومدعيات مفضوحة...

هؤلاء إنما يلجأون إلى هذه التسميات والمدعيات للإثارة، للتهييج، ولتبرير عملياتهم الدموية التي يرفضها كل ضمير حي، كل وجدان شريف، وإلا هل تكمن مصالحة طائفة، أو حزب، أو دين، أو مذهب بقتل أطفال أبرياء لا تتجاوز أعمارهم أياماً؟

هؤلاء مجرمون لا ينتمون لدين، ولا لطائفة، ولا لقومية، ولا لشعب، ولا لوطن، فالقاتل بغير حق لا ينتصر، وتدمير الوطني لا يضيف شيئاً، وتحريق الحرث والنسل لا يغني قومية، وترويع الناس لا يحمي طائفة، العكس هو الصحيح تماماً، السيد الجعفري بيّن هذه الحقيقة من خلال واقع نعيشه كلنا، فهو في خطابه:

... يمارسون الإرهاب باسم الطائفة، ويرد شعبنا على أن هذا لا يمثل الطائفة السُنية... ونقولها حقاً لا يوجد سني يقتل شيعياً، ولا شيعي يقتل سنياً على الإطلاق، بل يتعايشون جميعاً...

هذا ردّ واقعي على من يدّعي أن هناك حرباً طائفية في العراق، على من يقول إن هناك طائفة مظلومة في العراق، على أن هناك سنة أو شيعة مظلومين في العراق... لو كان ذلك حقاً لما شاهدنا ذلك التلاحم السني - الشيعي في مواجهة كارثة جسر الأئمة، لما وجدنا هذا الإصرار على العراق الواحد، على التراب الواحد، على الماء الواحد، على الهواء الواحد...

لا يوجد سني عراقي يقتل عراقياً، وإلا أين هو الإيمان بالإسلام؟

وأين هو بالعراق؟

الشعب كله يرد على من يدّعي الانتصار لهذه الطائفة أو تلك بالقتل، وبالحرق، وبالتدمير، وبالتفخيخ، وبالتفجير، كل هذه الممارسات تتضاد مع شرع الله، مع شرع الإنسان المتمدن، مع قواعد وقوانين المنظمات العالمية.

ألم يرشد العراقيون؟ كل العراقيين، سنة وشيعة، مسلمين ومسيحيين وصابئة، عرب وأكراد... ألم يرشدوا القوات العراقية من شرطة وأمن وجيش إلى أوكار الإرهابيين القتلة؟

ألم يعيّن العراقيون بكل أديانهم، بكل طوائفهم، بكل قومياتهم؟ ألم يعينوا قواتهم وحرسهم وأبناءهم من القوات المسلحة على مخابئ الأسلحة والعتاد والبارود والدمار؟

كيف تكون الوحدة إذن؟

يقول الجعفري في خطابه:

... نحن أبناء المقاومة، من الذي يزايدنا على المقاومة؟ ومن يملك تأريخاً أطول من تأريخ العراقيين في المقاومة؟ ومواجهة الديكتاتورية؟ من؟....

هذا يعكس اعتزازاً وطنياً، وانتماءً وطنياً.. صحيح أن الخطاب ينطلق من تقدير موضوعي ربما يعترف به حتى غير العراقي، ويعترف به باحث أكاديمي جاد، ويعترف به مدرس تأريخ مثلاً، ولكن الاعتراف شيء، والاعتزاز شيء آخر، نحن بين يدي اعتزاز تأريخي، اعتزاز ليس اعترافاً، ولم يكن كلام السيد الجعفري منصبّاً على حدث أو واقعة، بل على طبع، سجية، سلوك، تأريخ، فالعراق مقاوم من زمان، مقاوم الدولة الطاغية، وقاوم الاستعمار، قاوم الحكومة الظالمة، وقاوم صدام، وبذلك كان ومازال تأريخ العراق مقاومة.

هنا يجب التمييز حقاً بين المقاومة والإرهاب، وتلك نقطة غابت وتغيب عن بعض الناس، تجاهلاً أو جهلاً، ولا جمع بين المقاومة والإرهاب، قتل الأطفال، حرق البيوت، تدمير منشآت النفط، تفجير المساجد، لا يسمى مقاومة، بل تدمير، إزهاق للأرواح..

إن كل بلد يتعرض للاحتلال من حقه أن يقاوم، بل من واجبه أن يقاوم، وقد قاومنا الاستعمار الإنكليزي لأكثر من ستين عاماً، وقاومنا صدام لأكثر من ثلاثين عاماً، ولكن لم نحرق بستاناً، ولم نحرق بئر نفط، ولم نقتل طبيباً مختصاً، ولم نهجّر عائلة من بيتها، ولم نقتل مخالفاً بالرأي، أو بالمذهب، أو بالدين، ولم نهدم كنيسة، ولم نُسبِ امرأة، ولم نغلق مدرسة، ولم نخطف سياسياً، ولم نلغّم طريقاً إلى المدرسة، ولم نمنع الطيران من العمل، ولم نوجّه مدافع هاون إلى مناطق مكتظة بالسكان، فنقتل العشرات بل المئات.

كنا نحرص على حفظ المال العام، على تسيير أمور الناس، ونحن نقاوم، ونحن نكافح ضد الظلم، ضد الاستعمار، ضد الطغاة... ولذلك على من يريد أن يقاوم أن لا يكون جزءاً من مركّب الإرهاب فليكن جزءاً من مركّب الأمن، تلك هي كلمة السيد رئيس وزراء العراق الدكتور إبراهيم الجعفري، وهي كلمة حق، كلمة ذهبية، ذلك أن هناك تضاداً جوهرياً، عضوياً، بين المقاومة وبين حرق أطفال المدارس، قتل عمال يكسبون عيشهم بعرق جبينهم.

والواقع أن هؤلاء يعرفون الفرق بين المقاومة والإرهاب، ليس ذلك صعباً، ولا هو فلسفة عميقة، ولكن يريدون تبرير حقدهم على العراق والعراقيين، كأنما أجبروا على القتل، وإلا ألم تكن بعض بلدانهم محتلة بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟ لماذا لا يناضلون هناك؟ وإلى من نضالهم في العراق؟

لقد فضح السيد الجعفري هؤلاء بكلمات واضحة، كلمات نابعة من ثقافة الشعب، ومن رغبة الشعب، من أمنيات الشعب، يقول السيد رئيس الوزراء الدكتور الجعفري:

....الأخوّة بين السنة والشيعة واقع في العراق، لا نحتاج إلى من يذكّرنا بذلك... فالوحدة في العراق تنبض في عروق العراقيين...

في هذه الكلمات الواضحة أكد الجعفري أكثر من حقيقة، وأصاب أكثر من هدف، فهو بهذه الكلمات البسيطة حقاً يكون قد بيّن أن العراق سيد نفسه، وأن الشعب

العراقي قادر على حماية نفسه، وأن السني يتحمل على طيب خاطر وعن عميق إيمان حماية أخيه الشيعي، وأن الشيعي يحمل حماية أخيه السني، المثل بالمثل.

في هذه الكلمات يكون السيد الجعفري أكدـ وبيّن، ووضح أن العراق معلم نفسه، وأن العراقيين ليسوا أقل نضجاً من غيرهم من شعوب العالم، فالعراقيون يعرفون طريقهم، ويعرفون كيف يتغلبون على مشاكلهم، وهم سادة مواقفهم التي تخصهم، وليسوا أكواماً من صدف بشري، بل شعب عريق، أصيل وبالفعل فقد قاوم العراقيون قسوة الطبيعة، وظلم الإقطاع، وقسوة الاستعمار، وجلف الحكام...

في هذه الكلمات نفى السيد رئيس الوزراء نفياً قاطعاً ادعاءات بعض السُذج وكثير من الأعداء، وكثير من المتصيدين بالماء العكر، وكثير من انتهازيي الفرص... نفى أن يكون هناك تصدع في وحدة العراقيين، أن تكون هناك حرب أهلية، أن يكون هناك احتراب خفي، أن تكون هناك مفارقات مذهبية، دينية، عرقية، تنطوي على أحقاد سرية.

السيد الجعفري عّبر عن مشاعر الملايين من العراقيين فلا الكرد يريدون انفصالاً، ولا الشيعة يريدون فيدرالية طائفية، ولا السنة يريدون تمزيق العراق، ولا المسيحيون يحنون روحياً للغرب، بل حنينهم للعراق، والعراق وحده...

في هذه الكلمات أشار الدكتور إبراهيم الجعفري أن العراق غنيّ بفكره، غنيّ بوحدته، غنيّ بأبنائه، غنيّ بوفاء بعضنا نحن العراقيين لبعض؟

ألم نقاوم سوية الاستعمار الإنكليزي؟

ألم نقاوم سوية الحكم الاستعماري؟

ألم نقاوم سوية صدام؟

يقول السيد الجعفري:

... الأخوّة بين العرب والكرد وبقية القوميات واقع في العراق، والأخوّة بين السنة والشيعة واقع في العراق، لا نحتاج من يذكّرنا بذلك، نشكركم كثيراً على هذا، فالوحدة تنبض في عروق العراقيين...

ردّ على المتخرصين...

ردّ على الانتهازيين...

ردّ على المتوهمين...

ردّ على الإرهابيين...

كلمات خرجت من قلبه الكبير الذي يستوعب الجميع، وأرادها أن تكون دالّة على الطريق، وعلى الحاضر، والمستقبل.

(لا خوف أبداً على العراقيين وعروبتهم من اليوم مادام هناك أمثال الدكتور الجعفري ورفاقه، فنم قرير العين يا شعب العراق فقد جاءكم هذا الرجل الذي من صفاته الحميدة أنه يخاف الله ورسوله..)

الدكتور الجعفري.. بعيون مصرية

عادل الركابي

كنت قد زرت العراق قبل فترة، وفي طريق العوده إلى أميركا كانت محطتي الأولى (أمستردام) حيث مكثت بها ثماني ساعات؛ لننطلق بعدها عابرين المحيط إلى بلدي الثاني أميركا، وصادف أن جلس بجانبي شخص عربي الملامح والسحنة، حياني تحية بالإنكليزية وأجبته بالإنكليزية أيضاً، وعندما انطلقت الطائرة بدقائق، سألني أين وجهتي، قلت له إلى أميركا قال: أمقيم بها أو مسافر للنزهة؟ قلت له: إن أيام النزهة انتهت يوم جاء حزب البعث إلى العراق، وقتها عرف أنني عراقي، وبدأنا نتحدث بالعربية.

عرّفني بنفسه، وتبين أنه من مصر، وهو ذاهب إلى أميركا بمأمورية تخص دولته، وقال إنه يعمل مترجماً في الجامعة العربية، لم أقف كثيراً عند وظيفته في الجامعه لمعرفتي المسبقة بالجامعة، ومن يقف وراءها، تحدثت مع صديقي المصري كثيراً وفي كل الاتجاهات؛ لأن المسافة التي قطعناها طويلة (طيران لأكثر من عشر ساعات)، وهذه المسافة كافية لكي نتحدث عن كل الأمور، وفعلاً تحدثنا عن تأريخ السينما المصرية، وعن إرهاصات الدراما المصرية، وتفوّق الدراما السورية، وعن مواقف بعض الفنانين من القضية العراقية، وذكرنا موقف الفنان "بضم الفاء" (محمد صبحي)، و(رغدة).

كما تطرقنا إلى مسائل عدة من احتلال الجولان والإسكندرونة، مروراً بقتل السادات، وتأميم قناة السويس، والخسائر، والانتكاسات المتلاحقة أمام (إسرائيل)،

وعن مواقف الأردن وقطر وبعض الدول التي ترفع علم إسرائيل في عواصمها، وبالتأكيد تحدثنا عن العراق، وما حدث به بعد سقوط (جرذ العوجة) فتحدثت معه قائلاً: إن أغلب أبناء الشعب العراقي مع سقوط جرذ العوجة، ولكن هناك أخطاء كبيرة ارتكبت من قبل القوات المتعددة، والحكومة العراقية؛ مما انعكس على نبض الشارع الذي كان يطمح لأن يتخلص من العبودية، والطائفية في زمن نظام البعث الفاشستي.

هنا قال لي: إنك تتكلم عين الحقيقة، قلت له: أنا أنقل نبض الشارع العراقي، وهمومه اليومية، ووجدت أن الرجل يريد أن يبحث عن الحقيقة، ولا يرغب في حديث أو جدال بيزنطي كما يسمّيه أحد الأصدقاء عندما يكون جدلاً بين اثنين، الغاية منه الجدل فقط.

وقتها قال لي الرجل: إنك فعلاً تتحدث بكلتا العينين عن العراق، قلت له: هذا أمر طبيعي تجده عند أي عراقي شريف يحب وطنه، بعدها تطرقنا إلى موضوعات اجتماعية أخرى مثلاً تربية الأولاد ومدارسهم، وكيف نعلمهم لغتهم الأم، وكيف نعوّدهم على حب الوطن والدين .. إلخ.

انتهت الساعات العشر من دون أن نشعر بملل الطريق، وأخذت رقم هاتفه في أميركا ومصر، ونزلنا في واشنطن على أمل اللقاء ثانية إذا قدّر الباري (عز وجل). أخذت طائرة أخرى لكي أصل إلى ولايتي، وهو اتجه إلى خارج المطار مودّعاً بكل المحبة والتقدير، وبعد يومين من وصولنا اتصلت به، وتحدثنا قليلاً، واستمرت الاتصالات بيننا إلى أن جاء يوم عودته إلى مصر، وهاتفته بعد يوم من وصوله إلى القاهرة، حامداً الله على سلامته، واستمرت الاتصالات بيننا بين الفينة والفينة، وكنت قد اتصلت به في العيد أبارك له وعائلته على أمل أن نكرّر ذلك مرة أخرى.

ولكنني تفاجأت أنه يتصل بي ولكن هذه المرة ليس هناك أي مناسبة لا في أميركا، ولا في مصر، استغربت مكالمته هذه المرة قبل أن أبادره السؤال، قال لي: هل تابعت المؤتمر تذكرت حينها أنه مترجم فوري في الجامعة العربية، قلت له: نعم، وعليك أن تغلق الهاتف الآن حتى أطلبك أنا؛ لأنني أريد التحدث معك حول هذا

المؤتمر، ولا أحب أن أثقل عليك بمبلغ المكالمة فقال لي باللهجة المصرية: (إخص عليك يارجل)، وبدأ يتحدث قائلاً: أنت تعلم أنني مترجم منذ عشرين عاماً في الجامعة العربية، وأكاد أجزم لك أنني أقدم مترجم في الجامعة، وقد مرت على هذا الرأس (أي: رأس المترجم) الكثير من الرؤساء والملوك والسلاطين، وكنت أترجم كلامهم للوفود الأجنبية التي تحضر إلى الجامعة.

المهم كنت مترجماً وهذا عملي، ومن خلال الممارسة أصبحت لديّ خبرة كبيرة جداً، ليس في الترجمة فقط بل بالرؤساء العرب وكلماتهم، وهتافاتهم ووصل بي الأمر لأن أعرف أن الرئيس الفلاني سيقول هكذا بخطابه اليوم، وفعلاً يحدث هذا، وبعض المرات أترجم قبل أن يتحدث لأننا حفظنا مايقولون منذ سنين.

يقول الأخ المصري: عندما يبلغوننا أن هناك مؤتمراً أو اجتماعاً في قاعة الجامعة يعطوننا أسماء الذين سوف يحضرون هذا الاجتماع، سواء كانوا رؤساء، أم أقلّ من ذلك فنذهب إلى الأرشيف لكي نطلع على كلماتهم السابقة من أجل تنشيط الذاكرة، وفعلاً يكون حديثهم مجترّاً وبنفس الأسلوب، وكنا نعاني جداً من الوفد العراقي (زمن نظام صدام)؛ لأنه دائما يشتم ويهرّج بمفردات لا نعرفها نحن المصريين، وهذه مشكلة في الترجمة، وعندما بُلـّغنا هذه المرة أن هناك مؤتمراً للعراقيين الفرقاء، كنا قد أعددنا أنفسنا جيداً لمعرفة أصحاب الكلمات؛ فأخبرونا أن هناك كلمة للرئيس حسني مبارك، والأمين العام للجامعة، والرئيس طالباني، والدكتور الجعفري، وأشرف قاضي، وآخرين.

قلت: إنني والحديث للأخ المصري: لم أسمع جلال طالباني من قبل يتحدث العربية، فاستعنت بصديق لي من الأكراد المقيمين في القاهرة، ويحمل شهادة الدكتوراه، فقال لي: إن الأخ جلال يتكلم العربية جيداً، قلت له: لا ضير في ذلك، ولكنني أريدك إلى جانبي خلال كلمة الرئيس جلال فربما يتحدث بضع كلمات كردية، قال: حاضر سأكون معك، وكذلك استعنت بأحد الإخوة الذين يجيدون اللغة الأفغانية؛ لأنني أعرف أن أشرف قاضي أفغاني، وقد بلـّغونا أنه سوف يتحدث بالعربية، فقلت: قد

يتحدث الرجل بلغته الأم، وبهذا أحسست أنني تسلحت بسلاح قوي، وأني لن أخذل الجامعة اليوم بالترجمة.

عند انطلاق المؤتمر كانت هناك كلمة الأمين العام، وكلمة الرئيس حسني مبارك، وعندما اعتلى المنصة الرئيس جلال طلباني، وبدأ يتحدث التفت لي صاحبي الكردي، وقال: إنه بلبل بالعربي، فأدرت له رأسي مؤكداً ذلك، وعندما تحدّث أشرف قاضي حدث الشيء نفسه، ولكن عندما تحدث الدكتور الجعفري، والكلام لازال للأخ المترجم: أقسم أنني منذ عشرين عاماً بهذا المكان لم أسمع هكذا كلام شفاف ورصين، وقد كنت أنظر إلى الرجل وهو يتحدث بطلاقة، وبعربية فصيحة، مستنداً إلى آيات القرآن الكريم؛ مما دعاني لأن أرمي مايكرفون الترجمة إلى زميل يجلس بجانبي، وانطلقت محلقاً مع كلام الجعفري.

على الرغم من قِصَر مدة الخطاب، ولكنه اختزل العراق ماضياً وحاضراً، وتحدّث وكأنه الوحدوي الوحيد في هذا العالم، وكم تمنيت أن يستمر هذا الرجل بهذا الكلام الذي لم تسمعه الجامعة العربية منذ تأسيسها، وكم تأسفت عندما أنهى كلامه الرائع، وقتها قلت: لا خوف أبداً على العراقيين وعروبتهم من اليوم مادام هناك أمثال الدكتور الجعفري ورفاقه، فنم قرير العين ياشعب العراق فقد جاءكم هذا الرجل الذي من صفاته الحميدة أنه يخاف الله ورسوله.

إلى هنا انتهى كلام الأخ المصري، وشكرته جداً على كلامه ونكران ذاته، وأخبرته مقدار فخري بهذا الكلام، ولكنني فاجأته حينما قلت له: كلامك جداً صحيح، ولكنني لن أنتخب الجعفري فقالها هذه المرة أيضاً بالمصري: (ليه ياراجل دا الجعفري كويس أوي)، قلت له: هل نسيت أننا في زمن الديمقراطية الجديدة، فضحك الرجل وودعته، وقلت له: إن هذا الكلام سيُنشر، قال: دون ذكر اسمي، قلت: لك هذا ياصديقي المنصف، وتحية إلى كل منصف شريف وقف مع الشعب العراقي...

(... فلسنا نعيش أزمة خطاب - كما يقول الجعفري -، وإنما نعيش أزمة موقف وسلوك عملي.)

الوحدة في منطق الدكتور الجعفري

سلام عبد علي

إن أحد أهم أهداف مؤتمر القاهرة، هي إعادة الثقة، وتقويم جسور المودة والوئام، بعد أن انهارت الوحدة الدينية بسبب الخطاب الطائفي المقيت الذي لعبت على أوتاره سياسة البعث الخبيثة، ثم جاءت ضربات أزلام النظام والزرقاوي لتعمق الهُوّة بين الطرفين، لذا كان الرهان معقوداً على الحرب الطائفية والأهلية لتفتيت وحدة العراق غير أن المخلصين من أبناء الطائفتين وقفوا سداً منيعاً لتفادي تداعيات الخطاب والسلوك الطائفي الذي اجتاح العراق بشكل لم يسبق له مثيل.

نحن لا ننكر السلوك الطائفي الذي كانت تمارسه الحكومات السابقة بين أبناء الطائفة الشيعية وأيضاً الممارسات العنصرية بحق الأكراد والقوميات الأخرى غير أن الخطاب الطائفي كان يتحرك وراء الكواليس وكان الجميع يستنكرون السلوك الطائفي ويؤكدون عكسه.

في العراق اليوم طائفتان متناحرتان، فهذا الزرقاوي يعلن حربه صراحة ضد الشيعة، ويأمر أتباعه بملاحقة كل الشخصيات الشيعية البارزة، بينما تجد الرموز الشيعية تمارس سلوكاً آخر بعيداً عن الطائفية، بل إنهم يتوافرون على فهم للوحدة لا تجده عند الآخرين.

ومثال على ذلك انظر إلى حديث الدكتور إبراهيم الجعفري في مؤتمر الوفاق الوطني وهو ينظّر إلى الوحدة بين أبناء الشعب الواحد، فهو ينأى بنفسه عن الكلام اللغو ولقلقة اللسان، ويطالب بالكف عن الخطب والتصريحات الوحدوية التجريدية

وتحويل الوحدة إلى ممارسة سلوكية وهذا ما يحتاجه العراق اليوم، فالجعفري يؤكد أننا لسنا بحاجة إلى خطاب، وإنما سلوك وفعل والواقع العراقي متعطش للموقف الوحدوي الصحيح، يقول:

هناك أزمة، وهناك ازدواج في الخطاب حيث تجد من الناحية التنظيرية الكثير يتحدثون عن الخطاب الوحدوي، ولكنك عندما تنظر إلى الواقع تجد ممارسة خاطئة ومقلوبة، نحن في العراق تخطينا مسألة الخطاب، لسنا بحاجة إلى خطاب يشرّع كيف نوحّد واقعنا، وهناك واقع في العراق وحدوي نستلهم منه مفردات الخطاب.

ثم بادر إلى مثال حي شاهده العالم أجمع، إنه مثال حادثة جسر الأئمة التي تشابكت فيه الأيادي الشيعية والسنية لمواجهتها، فيقول:

مثلاً بسيطاً، أرأيتم ماذا أرادوا بحادثة جسر الأئمة؟ أرادوا أن يمزقوا واقعنا بواقع آخر، ويستبدلوا الوحدة الحقيقية بحالة من الفرقة.

الخطاب الذي صرّح الجميع به كان خطاباً وحدوياً، وكان مستلهماً من الواقع، ولذلك وجدنا أن الكلمات التي أطلقها الجميع والممارسات التي شهدها مشهد شهداء جسر الأئمة كان مشهداً وحدوياً رائعاً، ذابت فيه كل الفروق المذهبية والقومية والدينية والسياسية والمناطقية، إذن فلسنا نعيش أزمة خطاب كما يقول الجعفري، وإنما نعيش أزمة موقف وسلوك عملي.

(قدّم الجعفري أطروحته في ظل احتقانات زمانية، معرفية، ومكانية، وشخوصية، وحولها إلى امتدادات للحوار والخطاب، وصنع آفاق الأمل.)

(يمتاز خطاب الدكتور الجعفري بأنه طرح الموقف السياسيّ كخلاصة لرؤى فكرية لها نسق منطقيّ، ومضمون موضوعيّ، فجذر الموقف السياسيّ دائماً في أسلوب التعامل مع الواقعة.....)

(الجعفري يبحث دائماً عن قيم العقل المعرفيّ وراء السلوك السياسيّ.....

(لقد أقلق الجعفريّ خصومه، فقد تضمّنت كلمته إجابات عراقية صادقة عن هواجس كانت تدور في مجالس العرب خارج العراق....)

خلفيّات الأحداث قبل مؤتمر القاهرة

رؤية تحليلية في خطاب الجعفري

(مركز الرصد السياسي العربي / العراق)

دلالات خلفيات الأحداث قبل مؤتمر القاهرة

منذ عام (2005) لعبت عوامل محلية، وإقليمية، ودولية دوراً في تصدّع المواطنة العراقية على أسس مذهبية، وقومية، ومناطقية، فلقد تحوّلت النوازع المذهبية إلى نوازع طائفية، اختفت وراءها مصالح (فئات)، تتطلع إلى وضع سياسي ما، وكذلك تحولت النوازع القومية إلى نوازع عنصرية، وتحول الانتماء الجغرافي إلى تكتل مناطقي، وبذلك طغت السمات الثانوية على السمة الجوهرية (للمواطنة) العراقية.

هذه النزاعات تصاعدت من مرحلة مجلس الحكم، ثم وقفت المجاميع المتبنية لهذه النزاعات بالضد من الانتخابات التي أنجبت أول جمعية وطنية صاغت دستور الجمهورية (الثانية)، ثم حاولت أكثر من جهة إعاقة عملية ولادة الدستور، وإجهاض عملية الاستفتاء عليه.

كما حاولت هذه المجاميع أن تبرّر، أو تدافع عن العمليات المسلحة التي استهدفت المواطنين العراقيين، والبنى التحتية للبلد، ورجال الشرطة والجيش، والأطباء، والمهندسين، وأساتذة الجامعات، لقد دخل العراق بسبب هذه النزاعات التي اختنقت فيها المواطنة في دوّامة من العنف.

الجماعات التي مارست العنف لم تكن تملك قدراً من الشجاعة بحيث تعلن عن نفسها، وتعلن عن وسائلها العنفية المسلحة، لكنك تجد طرفاً مقاطعاً هنا، ومنكفأ هناك، يدافع، ويبرر تلك الممارسات، ويخلط الإرهاب بالمقاومة، ويخلط العروبية بالولاء للعراق، وقد ساندتهم في ذلك أنظمة عربية، وساندتهم محطات إعلامية كبرى، وصحف واسعة الانتشار.

ومع أعتاب الانتخابات الدستورية التي ستنتج عنها حكومة وطنية دستورية لأربع سنوات يختارها مجلس نواب منتخب، وجدت بعض الفئات نفسها في مأزق وطني،

عندئذ تدخلت الدول العربية التي أهملت وضع العراق، وأهملت نزيف الدم، ونزيف الثروات في العراق لأكثر من سنتين.

عندما ضاقت أوضاع هذه المجموعات اندفعت الجامعة العربية لعقد مؤتمر (اللقاء الوطني)؛ لتأسيس قاعدة للحوار، وبناء الثقة، واشتراك قطاعات أوسع في البرلمان والحكومة، وبجهود بالغة التعقيد استطاع الأستاذ (عمرو موسى) أن يحقق لقاءً بين مجموعات تمثل المكونات السياسية في العراق، شارك فيها العراقيون والعرب، وأجهزة الرصد السياسي العالمي، ومراكز الرؤى السياسية في وزارات الخارجية، ومحطات فضائية كبرى.

كل هذه الجهات كانت تترقب ماذا سيقول الدكتور الجعفري في القاهرة، منهم من خاف لخصائص الجعفري في التوافق، والتوحد، والرؤية التي يحملها من أجل إبراز المشتركات، وبعضهم خافوا أن يقول ما يتطلع إليه ضحايا إرهاب البعثيين، وضحايا المقابر الجماعية، ومجازر الأهوار والوسط، والجنوب، وملايين الضحايا والمهجّرين.

البعض خاف أن يلحق ضرر الإرهاب بحاضنيه، وبذلك ستضيع الفرصة الملائمة لاحتواء جهات سياسية مسلحة قابلة للدخول في الممارسة الدستورية الوطنية الجديدة، إذن أين نقطة التوازن التي تحفظ حقوق ضحايا الإرهاب السابق واللاحق، والتي تفتح صفحة لانضمام من تصور أن الانكفاء وسيلة للتوسع خصوصاً بعد أن أدرك الكثير أن هذه الوسيلة خاسرة، وأن الوطن يستحق العناء والإيثار، وأن أخوّة العراقيين إرث تأريخي تحتاج إلى نافذة من أجل العودة إلى ميادين العمل والبناء.

تحت هذين الضاغطين قدّم الجعفري أطروحته في ظل احتقانات زمانية، معرفية، ومكانية، وشخوصية، وحولها إلى امتدادات للحوار والخطاب، وصنع آفاق الأمل.

الجعفري كذلك لم ينسَ الإشارة إلى التضحيات والاستحقاقات، فندّد بمن يمارس الإرهاب تحت غطاء الطائفية السياسية (أي: الذين لا يمثلون السنة، وأبرز أن السلطة المقبورة هي المسؤولة أولاً وآخراً عن جلب الاحتلال، وفكّك بين السلطة المقبورة ومدعياتها العروبية والمذهبية، فحاكمها بوصفها تتحمل المسؤولية

القانونية، والتأريخية عن مآسي البشرية، ومديونية البلد، وأهم من ذلك كله فإنها اعتدت على كرامة العراقيين؛ لذلك، فإن الواقع العراقي الذي عبّر عنه الجعفري يضع خطاً أحمر يمنع دخول البعث مرة ثانية.

كما خاطب الجعفري أولئك المتمردين على الحكومة الشرعية والبرلمان، وذكر بأنهم لا يستطيعون اغتيال الإرادة المنعتقة للعراقيين، ففي هذا البلد الآلاف من القادة ينتظرون دورهم في مسيرة البناء.

مقاربة في منهجية الخطاب

في خطاب الدكتور الجعفري في مؤتمر الوفاق الوطني الذي احتضنته الجامعة العربية أكثر من قضية ملفتة للنظر، ومبعث ذلك ما أثاره هذا الخطاب، ومدى انشداد العراقيين بكل مكوناتهم إليه، وردود الأفعال الإيجابية التي ظهرت على الصحف ومواقع الإنترنت، وكأنموذج على ذلك مثلاً مقال السيد عبد الرحمن الراشد في صحيفة الشرق الأوسط في 2005/11/23 ومن أهم القضايا التي أثارها الخطاب:

التأسيسات الفكرية للخطاب

يمتاز خطاب الدكتور الجعفري بأنه طرح الموقف السياسي كخلاصة لرؤى فكرية لها نسق منطقي، ومضمون موضوعي، فجذر الموقف السياسي دائماً في أسلوب التعامل مع الواقعة، ويظهر ذلك من تحدياته الفكرية وضبطه المفاهيمي، فهو يبتعد تماماً عن تسييس الفكر، ويقترب من تنظير الموقف السياسي.

الجعفري يبحث دائماً عن قيم العقل المعرفي وراء السلوك السياسي، وفي خطابه بالجامعة العربية لا نجده يدخل إلى موضوعه، أو يؤسس خطابه إلا من مداخل فكرية عدة:

أولاً: المدخل القرآني

ثانياً: المدخل التراتبي

ثالثاً: المدخل الاستقرائي

رابعاً: المدخل الحضاري

خامساً: مدخل الانتماء

المدخل القرآني:

من البديهيات القول: يجب أن يتجانس الخطاب مع المخاطبين، وهذا الذي ما يطلق عليه مقتضى الواقع؛ ولأن أكثر حضور المتلقى الوطني العراقي من المسلمين، أو الذين يتبنون الأطروحة الإسلامية، فقد اختار الجعفري ما يلتزم به الجميع، وهو النص القرآني:

((واعتصموا بحبل الله...).

ثم يستخرج من النص مفاهيم كالاعتصام، والمراد به المعيارية في الاحتكام إلى المعطيات الربانية، والتي تتناسب مع قيم الخير المطلق، ومنها حق الحياة، وحق المجتمع في الازدهار، ثم وقف عند نهي النص:

((ولا تفرقوا)).

فاستنبط منه مفهوماً حضارياً جيداً للتعددية.

إن التعددية المسموحة في المنظومة الإسلامية لا تشترط وحدة العقل والفكر؛ لأن هذا يناقض التكوين، فقد خلق الله الأشياء، والعقول، بطرق تفكير متعددة، لذا استخلص الجعفري أن المشترط هو وحدة القلب، مع جواز تعدد العقل، والموقف، والاتجاه بشرط أن تسندها الموازين العقلية التي لا تهدر الحقوق الأساسية، ولا تتلف الثروة، وعليه فإذا كانت التعددية العقلية، والفكرية من طبائع الأشياء فإنما يتبعها ضرورة قبول الآخر، واحترام الآخر، والتكامل بالآخر، والحوار مع الآخر.

بذلك يقرّر الجعفري: أن الإسلام والمناخ القيمي الذي يؤسس التنوع، ويحمي التنوع بهذا التأصيل للمفهوم، والتعقيد للقانون وجّه الجعفري رسالة لمن يحرص على

الوحدة مفادها: أن يستوعب المرتكز الفكري ومؤداها: أن الوحدة لا تعني إلغاء الآخر، أو فرض الآيديولوجية عليه، إنما الوحدة تتجسد في صدق العاطفة، والرؤى الإنسانية.

ويعزّز الجعفري ذلك الاستنتاج بآيات الشورى مستنداً إلى مفهوم المخالفة، ومعناه أنه لو كان الموقف القرآني يريد نمطية التفكير بين الراعي والرعية والناس كافة، فما الحاجة إلى الشورى المأمور بها، عندئذ يشخّص الخلل الذي يقع في القلب:

((فألّف بين قلوبكم)).

ولم يقل بين عقولكم، حيث يجب أن تستقر القيم في القلب، ومن أبرزها قيمة قداسة الحياة، لذلك يقول الجعفري:

من القلب تبدأ الوحدة، ومن القلب تبدأ الفرقة.

المدخل التراتبي

التراتبية تسلسل منطقي، وهي سمة لطريقة التفكير عند الجعفري، فهو يؤسس حزمة المفاهيم، ويشكل الاتساق، ثم يصوغ الموقف السياسي على تلك الأسس؛ لذا نجده يرى أن عدم تأصيل الوحدة أسبابه ثلاث أزمات: أزمة في الفكر، وأزمة في الخطاب، وأزمة في التطبيق، وهنا يلاحظ الجعفري أو ربما يبتكر قضية الفصل بين الفكر والخطاب؛ لأن الفكر صيرورة، والخطاب اتجاه بأفكار مصاغة تهدف إلى إقناع المخاطب.

من هنا نكتشف أن الجعفري أصّل في خطابه للجانب الفكري بالاستنباطات آنفة الذكر، ثم عطف على احتباس الخطاب، فما يميّز الخطاب هو المسارات والأهداف، وكل خطاب يستهدف واقعاً صحيحاً يجب أن ينسجم مع مفردات ذلك الواقع ولهذا صلة بالتطبيق فحينما تكون الممارسة خاطئة نجد أن فسحة منظورة تفصل بين الخطاب والتطبيق؛ لذلك يقول الجعفري:

نحن في العراق تخطينا الخطاب، فلسنا بحاجة إلى الخطاب الذي يشرّع لنا كيف نتوحد إنما انتقلنا إلى الواقع، وحادثة جسر الأئمة كانت مثالاً على ذلك، فقد أرادوا من حادثة جسر الأئمة أن تنسف واقعاً وحدوياً، لكن عمق ذلك الواقع هو الذي فرض كينونته؛ فتحول مشهد جسر الأئمة من مشهد التمزق إلى مشهد التوحد، وصار "عثمان العبيدي" رمزاً يحبط الألغام التي أريدَ لها أن تفجّر طائفية سياسية ضيقة، إن رمزاً كـ "عثمان العبيدي" قد أذاب الفروق المذهبية، والقومية، والدينية، والسياسية، والمناطقية.

المدخل الاستقرائي

الاستقراء منهج، وخطاب الجعفري لصيق ذلك المنهج للنصوص والوقائع ذات الصلة، بل يتعدى ذلك فأحياناً يستقرئ الهواجس التي تعتمر في ضمير المخاطب؛ فيعطيه جواباً على سؤاله الذي لم يكتمل بعد.

يقول "عبد الرحمن الراشد" في مقال له نُشِر في جريدة الشرق الأوسط:

لقد أقلق الجعفري خصومه، فقد تضمنت كلمته إجابات عراقية صادقة عن هواجس كانت تدور في مجالس العرب خارج العراق، وتناقش خلف ظهره، فاستقرأها، وقدم لهم خلاصات صريحة، وألغى دور من يتحدث نيابة عن العراقيين، فتحدث عن عروبة العراق، وشدّد على أن شيعة العراق أكثر عروبة من غيرهم.

من التراتبية حديثه عن الاحتلال، فقد وضع نقاطاً على قضية الاحتلال مؤكداً أن الشعب العراقي لم يأتِ بالاحتلال إنما الذي تسبب باحتلال البلد نظام الديكتاتورية، وهذا الاحتلال حينما يكون على أعتاب الانتهاء، فالمقاومة الحقيقية تعني أن تحشّد السواعد لتمهيد إقامة دولة عصرية تنهض في أعقاب الجلاء، أما (المقاومة) التي تختفي وراء اسم شريف يرفعه أدعياء العروبة، وأدعياء الطائفية، فإنها مقاومة للوضع الديمقراطي الجديد أكثر منها مقاومة للاحتلال.

إن أمتنا هي أمة القيم الفاضلة، وأن أهل السنة براء من تدمير بلدهم، وهم براء من النصبِ لآل البيت (عليهم السلام)، فقد قاتل أئمة مذاهبهم الظلم والانحراف، وليس

أدلَّ على ذلك من موقف (أبي حنيفة) و(الشافعي) وحريّ بأهل السنة أن يقتدوا بهذين الإمامين العظيمين في ولائهم لآل البيت.

وإذا كانت المقاومة شرف، فإن الشرف الأسبق للذين قاوموا الدكتاتورية، ومن الينابيع الطاهرة لدمائهم أشرقت شمس الانعتاق، ولطالما قاتل أبناء العراق ذلك الطاغية بيد أن قتالهم لم يستهدف طفلاً، أو شيخاً، ولم يكن قتلاً عشوائياً، ومن هذه الخلفية قال الجعفري: نحن أبناء المقاومة.

فمن يزايد علينا في مقاومتنا، فنحن منذ عام 1916 نقاوم، من يزايد على دماء الآلاف من شهدائنا، وفي مقدمتهم الفقيه المفكر السيد (محمد باقر الصدر) والشهيد المخلص لبلده (عبد العزيز البدري)، ثم قال الجعفري: نحن أبناء هؤلاء.

ثم أشار الجعفري إلى أن الإرهاب قبل أن يكون ممارسة كان ثقافة ظلامية، ومع الأسف أنها صدرت باسم العرب، وباسم السنة، وكلاهما منها براء، أما الموقف من البعث فليس موقفاً من البعثيين، بقدر ما هو موقف من ثقافة حزب البعث تلك الثقافة القمعية الدموية الجاهلة، ووفق هذه التراتبية استخلص أن الإرهاب لن يوقف المسيرة، ثم قال: العراق اليوم مصنع الأبطال.

كما أكد الجعفري أن المقاومة يجب أن تكون جزءاً من مركّب الأمن، وأن لا تكون جزءاً من مركّب الإرهاب، وأن المقاومة الشريفة يجب أن تحرص على البنى التحتية، والثروة الوطنية ولا تسهم في تدميرها، وهدرها، وبذلك أزال الجعفري في خطابه للعرب كافة أسباب قلقهم حول الموقف من أهل السنة، وأبعد من يفسر مواقف العراقيين نيابة عنهم.

المدخل الحضاري

الانتماء، والفكر، والعمق التمدني، عناصر لها صلة تشعبية مع حالة تعايش المكوّنات على الرغم من تنوع ثقافتها، لقد أزاح الدكتور الجعفري الستار عن أن

النظم الرسمية العربية وعلى الرغم من أن بعض بلدانها مؤلفة من مكوّنات لكنها لا تقدر على الاعتراف الرسمي، أو الدستوري بوجودها ناهيك عن حقوقها، بينما وثّق الدكتور الجعفري تأريخياً أن العراق قد ترعرت فيه حضارات عدة، وتعايشت على ربوعه قوميات عدة، وأديان وثقافات منذ عدة قرون وحتى قبل الإسلام.

إن التعايش الحالي بين مكوّنات الشعب ليس حاجة أستراتيجية معاصرة، أو حاجة سياسية راهنة، إنه إرث تاريخي، أراد الدكتور الجعفري أن يقول: إن الظلامية والعنف لا تقوى على إزالة تأثير هذا الإرث وتحطيم مقتضياته.

لكن الجعفري ومن باب الاعتراف بالآخر الحضاري أشار إلى حاضرة مصر، وألمح إلى أن الاستقرار السياسي، واختفاء حالات التوتر بين العرب والأقباط إنما أوجده الإرث الحضاري المصري الذي يعضّد الإرث الحضاري العراقي، وتلاحظ ذلك واضحاً حينما صرّح بأن الضرب على الانتماء العراقي للأمة العربية سبقه ضرب على الانتماء المصري للعرب، لذلك قال:

في العراق إصرار على حفظ وحدة الشعب، وإصرار على الحفاظ على الموروث الرائع في التعايش المذهبي، والديني، والقومي، الذي ورثناه من آبائنا، وأجدادنا كواقع ونحن مُصرّون على الحفاظ على هذا الواقع.

مدخل الانتماء

من اليقين أن الخطاب (البراغماتي) الذي يحاول تسخير قضية لصالح أخرى ليست من جنسها استخدامه سيكون قصير الأمد، والدكتور الجعفري كان مدركاً وبوضوح أن الصراخ على (الهوية العربية للعراق) لم يكن حرصاً على الهوية بقدر ما كان يخفي وراءه أغراضاً أخرى.

لقد عالج الجعفري هذه القضية بمنهجية رصينة، فأشار إلى أن عاملاً مهماً لحضوره المؤتمر أنه يُعقد في مصر البلد العربي الأكبر، ولأنها حاضنة القدر العربي.

كما أشار الجعفري إلى عروبة العراق مؤكداً أن أياً لم يتسرب إليه ضعف في اعتزازه بعروبته وعربيته، فمن هنا انطلق العرب، وفي بصرة العراق أقيمت أعمق مدارس النحو والعَروض، وفي مدرسة الكوفة وُضِع الترقيم والتنقيط، وتيسرت قواعد اللغة والقراءات.

إن ثقافة أمة العرب كانت هنا، ولم يكن انتماء العراق للعروبة محل تساؤل لكن شكّكت أكثر من جهة في عروبة مصر، ففي جنوب العراق تاريخ عميق للانتماء العربي، ولا يشكك أحد بذلك الانتماء، بل لقد دافع عنه العراقيون كثيراً في وجه التتريك، وما بعده (الحملة الإنكليزية لتغيير بنى الثقافة).

لقد ضمن الدكتور الجعفري هذا الإصرار على عروبة العراق، وطالب بأن ينصفنا إخواننا العرب فيما لنا، وينصفونا فيما علينا.

في نهاية الخطاب: نلحظ ظاهرة الاستخلاصات التي ينتزعها السيد الجعفري من التأسيسات النظرية، والاستقراء، والتراتبية، وتنشيط الإرث الحضاري نحو التعايش، موجزاً لها بالنقاط الآتية:

أ. إن رؤيتنا تقوم على عدم التفريق بين أحد من أبناء شعبنا، ونحن مُصِرّون على هذا.

ب. طلب أن توجّه مبادرة الجامعة العربية نحو تقوية الوحدة الوطنية؛ لأنها موجودة أصلاً، ومفهوم المخالفة هنا إنه طلب ألا تتدخل قوى متكئة على الجامعة العربية، وتعبث بمفهوم الوحدة.

ت. حتى لا تبقى شعارات الملتقى الوطني على مستوى الشعار طلب أن تكون لها آلية عمل.

ث. أن تتذكر الآلية هذه والأهداف التي أفرزها الواقع أن هناك خطوطاً حمراء مستوحاة من المصلحة الوطنية العراقية، ولعلها تتعدى ذلك كونها مصلحة للبيت العربي، والجامعة العربية.

ج. أن تسعى الجامعة العربية للتفاعل مع الجهد الانتخابي المقبل.

ح. أن تشجب وتتعاون معنا فعلياً لإنهاء الممارسة الظلامية المتمثلة بالإرهاب.

خ. كما لمّح الدكتور الجعفري إلى أن الثروة العراقية بعد الخروج من الأزمة الوطنية هذه ستكون تغطي احتياجات البلد، وستكون عوناً للأشقاء والإخوة.

(ما قاله الجعفري كان حكيماً، ومؤثراً على الكثير من العرب الذين لا يعرفون عن العراق إلا ما يقال لهم من الأطراف المعارضة.....)

كلمة الجعفري أقلقت خصومه

عبد الرحمن الراشد

لقد صار مؤتمر القاهرة احتفالية جميلة على الرغم من تقاذف الاتهامات والمقاطعات وحروب المؤتمرات الصحفية، أحسنت الجامعة العربية بعقده؛ لأنه أشعر العراقيين باهتمام العرب بهم.
عبّر عن هذا الشعور رئيس الوزراء الدكتور إبراهيم الجعفري في كلمته المميزة التي فاجأت الكثيرين؛ لأنه ضمّنها الأسئلة التي تدور في مجالس العرب خارج العراق وخلف ظهره.

كانت مصارحة إيجابية، على سبيل المثال: هل العراقيون عرب أم لا؟ وهل هناك خوف على انتمائهم، وبقية القضايا التي تفسّر بالنيابة عنهم؟ وربما لأنه ردّ عليها، عمد خصوم الجعفري إلى التقليل من أهمية خطابه، ووصموه بأنه مفرط في التفاؤل، عندما قال: (إن العراقيين يتعايشون مع بعضهم البعض).. ندرك أنه لا يسرّ العراقيين المعارضين أن يظن العرب أن مشكلة العراق إرهابية بل هي في نظرهم ذات استحقاقات ناقصة.

الجعفري مُحِق في تصويره للمشهد العراقي حتى الآن. فالعراقيون في مجتمعهم الفسيفسائي تعايشوا قروناً غالباً في سلام، وما نراه اليوم هو من عمل المليشيات البعثية التي خسرت مواقعها ومصالحها، وتدّعي أنها تدافع عن الناس، وكذلك جماعة الزرقاوي التي تريد حرباً في أي مكان في العالم العربي تحت أي ذريعة، كما رأينا في الأردن أخيراً.. بالتأكيد الخصومة المستمرة التي يشعلها الخاسرون سياسياً قد تمزق عامة الناس، وتفرقهم إلى معسكرات، وتورّطهم في التصنيف المذهبي والسياسي، وتنتهي بحرب أهلية.

ما قاله الجعفري كان حكيماً، ومؤثراً على الكثير من العرب الذين لا يعرفون عن العراق إلا ما يقال لهم من الأطراف المعارضة، وسيكون كلامه مطمئناً أكثر إذا ما حرصت حكومته بحساسية مفرطة على التعامل مع صورتها ورؤية العرب لها.

قلة تدرك أن هناك من الجماعات التي تبحث لنفسها عن موقع سياسي، أو تستردّ مجداً غابراً تريد أن تشعل في العراق حرباً تجرّ إليها كل العراقيين والعرب،

وستحاول أن تقدم الأدلة على ضرورة التحزّب والتقاتل، وتبحث عن الدعم خارج الحدود.

(ارتكز خطاب الجعفري فوراً إلى القرآن؛ ليستمد منه الموقف الإسلاميّ تجاه الآخر، أي كان يطمئن أطراف الحوار بأن مشروع الوحدة لديه يستوعب المغاير والآخر بكل تنوعاته.....)

(بهذا النمط من التفكير استطاع الجعفري أن يحرك سفينة المباحثات الشاقة باتجاه شاطئ الأمان؛ ليعيد للعراق أمنه واستقراره..)

الآخر في خطاب الدكتور الجعفري

صباح هادي السعيدي

اكتسب خطاب رئيس الوزراء العراقي الدكتور إبراهيم الجعفري في القاهرة أهمية كبيرة، فالخطاب كان خلال مؤتمر الوفاق الوطني في القاهرة، والذي شاركت فيه جميع الأطراف العراقية، وكان المقصود منه الخروج بصيغة توافقية تكسب من خلالها الأطراف ذات المواقف المتشنجة، بل والعدائية للعملية السياسية الحالية، وقد رفضت السلم والانصياع للقانون، ولجأت إلى العنف والسلاح لفرض إرادتها، فالعالم كان ينتظر موقفاً حكيماً يكسب هؤلاء، أو لا أقلّ يحيّد الأطراف المعادية للعمل السلمي؛ لذا كانت كل كلمة تنطلق من فم الجعفري تخضع للتحليل والقراءة الفورية من قبل السياسيين والمحللين.

وكان الرئيس الجعفري كما عوّد جمهوره حكيماً بليغاً، قد حقّق جميع الأهداف المرجوة من انعقاد المؤتمر، فبدأ بطرح مشروع للوحدة والاعتراف بالآخر مؤسساً على رؤية فكرية ذات بعد ديني إسلامي، أي إنها تطرح القواسم المشتركة مع الطرف الأهمّ في المعارضة السياسية وهي جماعة العلماء، الذين هم إسلاميون لهم رؤية تختلف عن الإسلاميين الآخرين من الشيعة والسنة معاً.

ارتكز خطاب الجعفري فوراً إلى القرآن؛ ليستمد منه الموقف الإسلامي تجاه الآخر، أي كان يطمئن أطراف الحوار بأن مشروع الوحدة لديه يستوعب المغاير والآخر بكل تنوعاته الفكرية، والدينية، والمذهبية، والسياسية، وهي رؤية كما يرى الجعفري قرآنية فيقول:

القرآن الكريم ينفتح علينا بثقافة التعدد على مستوى التفكير، وعلى مستوى إعطاء العقل فضاءً متسعاً يحترم الآخر؛ لذلك أقرّ القرآن التعدّد في الحوار، والتعدد في التفكير، واحتضن التنوع الفكري، ورعاه؛ فنشأ أصحاب الفكر، وترعرعوا في آفاق الدين الإسلامي.

ثم يؤكد الجعفري، فيقول:

إني بدأت بهذه الفقرة، فقرة تأصيل مفهوم الوحدة، وتقعيده؛ لأني أشعر أنها الآن في أروقة بعض المتدينين ممن يؤكدون على أنهم يحرصون على الوحدة، وينطلقون بطريقة في تقديري تفتقر إلى مرتكز فكري.

الوحدة في القرآن ليست وحدة عقل... الإسلام انفتح على الآخر العائلي، والآخر القبلي، والآخر المدني، والمناطقي، والآخر الديني، كذلك الوحدة لا تعني أن تلغي الآخر، الوحدة تنبثق من القلب.

فالقرآن يؤكد:

((وأمرهم شورى بينهم)).

((وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله)).

احترم الآخر، وراعِ الآخر، وجعل في آيات قرآنية كثيرة الآخر جزءاً من الحياة المتمدنة والمتحضرة:

((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)).

الآخر محترم، والذي يحمل فكراً إسلامياً ينبغي أن يضع في حسبانه من أجل أن يكون فكره فكراً إسلامياً يجب أن يعترف بالآخر مهما كان الآخر بعيداً عنه، فليس من أدبيات الوحدة أن تقمع الآخر، إنما الوحدة تنطلق من القلب:

((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم)).

ولم يقل بين عقولكم وآرائكم، من القلب تبدأ الوحدة، ومن القلب تبدأ الفرقة، ومن حيث بدأت الفرقة لابد أن نعوّض هذه الفرقة بوحدة.

بهذا النمط من التفكير استطاع الجعفري أن يحرك سفينة المباحثات الشاقة باتجاه شاطئ الأمان؛ ليعيد للعراق أمنه واستقراره.

إن الأقلام المأجورة أبت إلا الاعتراض على الكلمة التأريخية، أو تفسير مقاصدها بشكل يسيء لسمعة الدكتور الجعفري؛ لتحجيم شعبيته في نفوس الشعب طمعاً في اكتساب معركة الانتخابات القادمة.